أدب الأطفال
بين الحكاية الشعبية والإبداع الأدبي

أ.د. علي الحديدي

الكبار هم الذين يمنحون أدب الأطفال لكن الصغار هم الذين يكتبون له الخلود ، وأدب الأطفال قديم قدم الأمومة والطفولة للإنسان ، وعلى درب التاريخ الطويل للبشرية تناقلته شفاه الأمهات والجدات ميراثا للأجيال ، وتلقفته آذان الصغار إمتاعا ومؤانسة وتسلية ، ولتوجهه ضمير الجماعة ليحقق كثيرا من مواقفه ويرسب الجانب الأكبر من تجاربه ، واحتفظت به ذاكرة الزمن ليسهم بنصيب كبير في نقل تراث البشرية وخبراتها من جيل إلى جيل .

وأدب الأطفال حديث حداثة القصة أو الأغنية التي تبثها اليوم برامج الأطفال في الإذاعتين المسموعة والمرئية ، أو ترويها المدرسات في فصول الدراسة ، أو يقصها الرواة في المخيمات والنوادي والرحلات ، أو تقدمها المطبعة في كتاب ، أو تحكيها الأمهات والمربيات للصغار قبل النوم . يتسجون جميعا أدبا يمتع الأطفال [illegible] البهجة والسرور على قلوبهم ، وينقلهم بأجنحة الخيال إلى أعماق [illegible] ، أو يحلق بهم في آفاق المستقبل البعيد ، أو يحملهم خارج [illegible] ، أو يطوف بهم أرجاء الدنيا ، أو يصلهم بواقع الحياة . ومن ذلك كله تزداد خبراتهم ، وتتسع مداركهم ، ويتوقون الى الوقوف على حقيقة البشر الذين يعيشون معهم ، ويهفون إلى معرفة العالم المحيط بهم ، ويتعرفون مشكلات الحياة ويسعون وراء اكتشاف أسرارها ، ويرغبون في معرفة أنفسهم وانتماءاتهم ، ويسعدون بمقابلة خبراتهم بخبرات الآخرين ، ليقفوا على الصواب والخطأ في مجتمعهم وفي سلوكهم بحثا وراء الرضا النفسي والاطمئنان الداخلي . ومن ثم يخرجون من دائرة الحياة الذاتية اليومية الضيقة إلى دائرة التعلم الواسعة ، فيدركون أن خبرات الماضي سبيل إلى فهم أعمق للحاضر . ومن هنا كان أدب الأطفال سبيلا قويا يعرف به الصغار الحياة بأبعادها الماضية والحاضرة والمستقبلة .

وأدب الأطفال في عصوره القديمة عاش عالة على التراث القصصي والأدبي للكبار ، سار في ظله يسترفد رفده ، ويستلهم نصيحه ، ويتخذ منه مصادر يغترف منها المادة والصورة والخيال . فتمثلت لهم الخرافات والأساطير والملاحم وقصص الحيوان وحكايات الجن والسحرة ، وغير ذلك من القصص التقليدية والشعبية . وكلما تطور التفكير الإنساني وتطور بالضرورة فنه الأدبي ، تطورت معه حكايات الصغار لتصبح هي الأخرى جزءا من مادة الحياة ، ووسيلة اتصال أساسية للبشرية ، وسبيل الأجيال المتعاقبة لنقل الأفكار ، والقيم الروحية ، والمثل ، ومستويات السلوك ، والتقاليد . وصارت حكايات الأطفال كالجدول الصغير ينساب في موازاة النهر

السليم من [illegible] يعيش بحواره ويستمتع منه الحياة (١)

والسبب الرئيسى فى عدم استقلال الأطفال فى العصور [illegible] يعبر عن حاجاتهم الفنية والعاطفية والنفسية هو فكرة المجتمعات الأساسية فى [illegible] نفسها ، ذلك أنها لم تكن فى رأيهم مرحلة وجود مستقله بذاتها أو مهمة فى ذاتها بل كانوا يعتبرونها مرحلة انتقال تعبر بالكائن الآدمى الصغير إلى مراحل النضج وتحمل المسئولية فى المستقبل . وكان يستهويهم ويسيطر عليهم التفكير فى [illegible] العصر [illegible] أن يتخلص الطفل فى وقت مبكر من المثلية الخاصة بمرحلة [illegible] ، ومن [illegible] يجنى عقليه الراشد وسلوكه . وبهذا [illegible] على أنه راشد [illegible] أن [illegible] بل كان [illegible] (٢)

ومن [illegible] لم تهتم الحضارات القديمة بالطفولة بالقدر [illegible] كى [illegible] تجاه المجتمع الذى نشأ فيه . فكان الاسبرطيون من [illegible] القديمة مثلا يتركون أطفالهم ليلة ميلادهم عراة على قمم الجبال ، حتى لا [illegible] على قيد الحياة غير الأصحاء الأقوياء الجديرين بأن يكونوا جنودا فى جيش اسبرطة العظيم ، ثم ينشئونهم تنشئة عسكرية خشنة ، ليكونوا فرسانا غلاظ الأكباد فى قتال الأعداء . ولم يعن الرومان فى تنشئة أطفالهم بالمثل العليا بل تركوها وراءهم ظهريا ، واهتموا بالغاية العملية ، وكانت المنفعة عندهم هى غاية الحياة ، فنشأوا أطفالهم ليكونوا جنودا لامبراطورية روما العظيمة يفتحون البلاد ليسودوا العالم .

وفى الشرق كان الفرس يعلمون أبناءهم حتى السابعة ـ كما يقول هيرودت ـ أمور ثلاثة ركوب الخيل ورمى السهام وقول الحق ، وبعد السابعة يسلم الطفل للدولة فتقوم بتأهيله فى مجموعات ليصير جنديا فى جيش هرمز الفاتح ، فإذا مابلغ الخامسة عشرة تلقى حزام الرجولة وانخرط فى سلك المحاربين (٣) . والعرب القدامى كانوا يبعثون بأبنائهم إلى الصحراء فى اليوم الثامن من مولدهم مع مرضعات من البدو ثم لا يعودون بهم إلى أمهاتهم حتى يبلغوا التاسعة أو العاشرة ، وذلك لينهل الأطفال روح الحرية من الصحراء ، وليجدوا فى هوائها وخشونة العيش فيها مـا يسرع بهم إلى النمو الخشن ، ومايهبهم الغلظة ويؤهلهم لحمل السلاح(٤) . وكانوا فى الجاهلية يتعرضون للمأساة الكبرى وهى وأدهم خشية إملاق أو خوفا على البنات من العار .

والحدث البارز الذى غير كثيرا من مفاهيم المجتمعات القديمة عن الطفولة وعدل فى معاملة الأطفال هو ظهور الإسلام . ذلك أن تعاليمه وآراء علمائــــه

ومصرية كانت تطورا حقيقيا فى تاريخ الأطفال ، فقد جعل الأولاد زينة الحياة الدنيا [٥] ، ونعمة كبرى يمدنا الله بها لنصبح بهم أكثر نفيرا [٦] ، وأوحى الصغار بدل الرغبة فى وأدهم قرة أعين [٧] ، وأحباب الله ، وريحهم من ريح الجنة ، وفرض التعليم على الأولاد والبنات [٨] ، ودفع الكبار إلى رحمة الصغار ورعايتهم حتى صاروا أكبادا تمشى على الأرض .

كذلك اهتم علماء المسلمين ومفكروهم بتربية الأطفال وتعليمهم وتنشئتهم النشأة الاسلامية الصحيحة وممن أسهم بفكره من العلماء فى هذا المجال : محمد ابن سعيد بن حبيب التنوخى القيروانى المعروف بابن سحنون (٢٠٢ - ٢٥٦هـ) ، وأبو الحسن على بن خلف القابسى القيروانى (٣٢٤-٤٠٣هـ) ، وأحمد بن محمد ابن يعقوب المعروف بابن مسكويه (٣٢٥-٤٢١هـ) ، وإخوان الصفا (القرن الرابع الهجرى) ، والشيخ الرئيس أبو على الحسين ابن عبد الله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ) وأبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى الأندلسى (ت ٤٦٣هـ) ، وحجة الإسلام محمد ابن أحمد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ) ، وبرهان الدين الزرنوجى (ت ٥٧١هـ) ، ومؤسس علم الاجتماع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) ، وعبد الباسط ابن موسى العلموى (ت ٩٨١هـ) [٩] وقد سجل هؤلاء وغيرهم من علماء المسلمين آراءهم المتفردة وأفكارهم المتميزة فى تعليم الصغار وتنشئتهم ، ودونوها فى كتابات مستفيضة ، عالجوا فيها كثيرا من القضايا التعليمية ، والنفسية ، والسلوكية ، والاجتماعية بمنهج متقدم فى عصره وعقلية سبقت زمانها ، فأقاموا وزنا كبيرا بين مادة الدراسة وعمر الطلب ، وفرقوا بين تعليم الصغار وتعليم الكبار ، وأدركوا فائدة التبكير فى طلب العلم ، واهتدوا إلى التعليم المتواصل وهو ما يسمى بالتربية المستمرة (Continuing Education) فقالوا بطلب العلم من المهد إلى اللحد ، ويحسن بالمرء أن يتعلم مادامت الحياة ، وعرفوا الصلة بين الجسم والعقل وعقدوا الموازنة بينهما ، ودعوا إلى الرياضة البدنية ، وأوجبوا العطلات والإجازات توكيدا لراحة التلاميذ ، وأكدوا أهمية اللعب للطفل وحاجته إلى النشاط الجسمى ، ونادوا بالتدرج فى التعلم من السهل إلى الصعب ، وعنوا بميول الطلاب وقدراتهم وتوجيههم نحو الدراسات التى تؤهلهم لها ميولهم وقابليتهم ، وهو ما يسمى اليوم بالتعليم المهنى ، ودعوا إلى ضرورة إرشاد الطالب وإعادة توجيهه إذا استبان خطأ اختياره فى البداية ، وهو ما يعرف باسم (Reorientation) وحددوا مراحل التعليم ، وبرامج الدراسة ، ومناهجها ومواقيتها ، وقرروا أثر التربية والتنشئة فى الأطفال لكنهم لم يهملوا دور الطبيعة الأصلية فعرفوا حدود التربية والاكتساب والتطبع ، وهو ما يعرف بالحدود بين الوراثة والبيئة ، أو بين الطبيعة والتطبع Nature and Nurture . فاختلاف الطباع لا يرجع

[illegible] التربية [illegible] والـ [illegible] العربية [illegible] وغيرها كثير [illegible] التى كانت تعتبر فى زمانهم [illegible] جديدا فى عالم تنشئة الأطفال .

واذا أمعنا النظر فى هذه الأفكار الاسلامية نجد بعض [illegible] بينها وبين الأسس التى قامت عليها التربية الحديثة فى أوربا ، ومن هنا قد يذهب بنا [illegible] الى التساؤل : ماذا لو قدر لهذه الأفكار التربوية [illegible] أن [illegible] الزمن فى حركتها التطورية بما يحفظ من أجل [illegible] عليه [illegible] ، [illegible] مواجهة متطلبات [illegible] وحاجاتهم [illegible] ؟ اذا [illegible] من نظريات تربوية متكاملة قد تماثل أو تغاير مع التربية الحديثة ، لكنها كانت بكل تأكيد منطلق التطور فى عالمنا الحديث .

وبقدر هذا الاهتمام الكبير الذى أولاه [illegible] العرب المسلمون للأطفال فى تعليمهم [illegible] ازدهار الدولة العربية الأسلامية كان اهمالهم شديدا وقاسيا من جانب الأدباء . والمتتبع للمسيرة الأدبية الطويلة منذ العصر الجاهلى وحتى مطلع عصرنا الحديث لا يجد أديبا واحدا ألف قصة أو حكاية ، أو أنشد قصيدة أو أغنية للأطفال خاصة ، مستهدفا امتاعهم والترويح عنهم أو ادخال السرور على نفوسهم على الرغم من التقدم العلمى والفكرى والازدهار الأدبى والفنى والحضارى الذى كانت تنعم به الأمة العربية الاسلامية طوال ثمانية قرون كاملة ، وعلى الرغم من أن المنهج التعليمى للأطفال فى التربية الاسلامية القديمة كان ضمن مقرراته القصص والشعر ، [illegible] على المؤدبين أن يرووا الأطفال ما سار من المثل وحسن من الشعر[11] ، ويعلموهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء[12] ، ويبصروهم بالخطب والمغازى[13] ، ويرغبوهم الأخبار[14] ، ويضربوا لهم القدوة بأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار[15]

والذى يدعو إلى الدهشة حقا أن الأدباء العرب القدامى أسقطوا الأطفال من حسابهم وأهملوهم إهمالا كاملا فيما يقدمون من فنون أدبية ، على الرغم من فيض التراث القصصى الذى كان يزخر به المجتمع العربى نتاجا للعقلية العربية وقد منحت حظا موفورا من الخيال ، وأعطيت قدرة فائقة على صياغة المادة المحيطة بها قصصا جميلا ، وامتازت بالموهبة المبدعة التى تعيد تأليف القصص القديمة المتوارثة وتخرجها فى ثوب يكاد يكون جديدا[16] ، والتى تستقبل الحكاية المتوارثة إليها بحفاوة وتقدير ، وتصوغها من جديد بمهارة ودربة ، وتضيف إليها وتشبعها بالروح العربية ، وتضفى عليها من موهبة الخيال والفن التى تتطلبه [illegible] ، فلا يملك التاريخ إلا أن ينسبها إلى العرب وينسى مصدرها الأول .

أما عن الحكايات الخاص بالعرب القدامى فقد وصلوا به الى حد الكمال والابداع (٧)

كذلك لم يلق الجانب الرسمى من المجتمع بالا إلى الفن القصصى للصغار، فلم يقدره الرواة أو المدونون قدره ، ولم يسترع انتباههم من " أدب الأطفال " إلا الأغنيات التى كان الكبار يرقصون بها الصغار ، وحتى أغنيات الترقيص هذه تدخل فى العالم الموسيقى للطفل لكنها لاتدخل فى أدبه ، ذلك لأن معانيها وألفاظها - وهى فوق مستوى الأطفال - تصنفها فى أدب الكبار ، فهى أغان عن الطفل وليست أغانى للطفل يمكن أن يغنيها بنفسه فيسعد بنغماتها وألفاظها ومعانيها معا . وما وصل إلينا من موضوعات التراث القصصى العربى التى بلغت بالمجتمع حد الرفاهية الفنية ، كانت جميعها لأرغا" الحاجات الفنية والعاطفية للكبار . فكتاب " كليلة ودمنة " مثلا برموزه السياسية والطائفية والشعوبية وحكاياته المركبة ، كتاب للكبار ، وكذلك عشرات المصنفات التى ألفت على شاكلته ، و " ألف ليلة وليلة " سيد مصنفات التسلية وحكاياته المنزعة عن الجن والأساطير والمغامرات وأسفار البحار ، وقصصه السافرة عن الجنس ، وسافيه من الفانتازيات والنوادر التى أمتعت العالم وأسعدته ، وما أضافه إليه كل عصر من روحه ، وما أسهم فيه كل قطر عربى من صبغته ، وما اشترك فيه من تراثه الشعبى وخياله ، قصد به إمتاع الرجل سيد المجتمع وتسليته .

وإذا كانت بداية أدب الأطفال ترجع فى الزمان إلى أول الزمان فالراصدون لحركة مسيرته وأنتقاله وشجرته وتطوره مع الأجيال القديمة يلمسون ظاهرتين بارزتين جديرتين بالتسجيل :

أولاهما : لم يحظ " أدب الأطفال " من الحضارات القديمة بالتدوين أو الدراسة والاهتمام كما حظى أدب الكبار ، فقد اهتمت أكثر الحضارات القديمة بتسجيل تراثها الفنى إلا أنها أسقطت من حسابها أدب الأطفال اللهم إلا فى مصر القديمة أو حين يكون أدب الصغار متصلا بعمل من أعمال الكبار .

والثانية : لم يظهر لأدب الأطفال - فى مسيرته القديمة الطويلة - فنانون متخصصون يبدعون فى خلقه ، ويبتكرون فى صيغه وأجناسه ، ويستقلون به بعيدا عن أدب الكبار .

ولعل السبب فى إهمال أدب الأطفال وعدم تدوينه فى التراث القصصى العالمى القديم هو تلك النظرة التى كان القدامى ينظرون بها إلى الطفل وهى أنه [illegible] [illegible] ليس لها فى ذاتها وجود مستقل ومن ثم لم يفطنوا إلى الحاجات أو [illegible] [illegible] الخاصة بها فاهتموا بها وبأدبها . ولأن القدامى أنفسهم

لم يكتشفوا أهمية مرحلة الطفولة [illegible] أن كثيرا [illegible] للبناء النفسى للفرد فى مراحل سنى [illegible] ، [illegible] لم يكتشفوا أهمية [illegible] فى تكوين عواطف الطفل وخيالاته ورضاء نوازعه وحاجاته النفسية ، [illegible] فأهملوا تدوينه . وربما لم تعن الحضارات القديمة بتسجيله لأن جزءا كبيرا منه مستمد من الأدب الشعبى وهو بدوره لم يبدأ العالم فى الاهتمام به إلا فى القرن الثامن عشر .

ولم يكن لأدب الأطفال فى عصوره القديمة كتاب متخصصون [illegible] فى خلقه ويبتكرون فيه ، لأن مجتمعات هذه العصور [illegible] يكن للطفل أو المرأة مكان مستقل فيه ، ومن ثم اتجه الفنانون والأدباء [illegible] المجتمع يدورون فى فلكه [illegible] يتوسلون بحسب التقرب منه ، و [illegible] على إرضائه [illegible] منهم فنا خاصا بالأطفال موجها [illegible] قصصية [illegible] ، [illegible] على مدى ألف ليلة وليلة بينما لا تحكى لأطفالها من شهريار نفسه قصة واحدة [illegible] الطبيعى الذى يحتل من [illegible] شخصية أسطورية [illegible] وقد [illegible] على [illegible] إشباعا [illegible] حاجاتهم [illegible] كان [illegible] الأبناء .

وأمر آخر يبعد بالأدباء عن الكتابة للصغار ، ذلك أنهم فى أكثر [illegible] التاريخ كانوا يتجهون بفنهم الأدبى إلى البلاط وقصور العظماء ابتغاء [illegible] والصغير لا يعطى مالا ولا جاها ، وفوق ذلك كانت المجتمعات القديمة لا تنظر [illegible] الذين يتعاملون مع الأطفال حقهم من التقدير ، بل كان ينظر إليهم بعين الاستهانة والسخرية وعدم الاحترام . وقد عير الحجاج بن يوسف الثقفى بأنه كان معلم صبيان فى مقتبل عمره ويتقاضى أجره " رغفان المعلم " ومن الرواة من أنشد فيه :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له [illegible] رآخر كالقمر الأزهر

وقد أفاض الجاحظ ، [illegible] فى الحديث عن حماقة معلمى الصبية [illegible] كتابا [illegible] بالحكايات التى تدل على الحماقة وقلة العقل وخطل الرأى ، وذكر [illegible] أمثال العامة " أحمق من معلم " وأنشد [illegible] واحد منهم :

[illegible] الزمان [illegible] الرصيف

وأنشد أبو ... :

خبز المسلم والبستان متفـــــــق   واللون مختلف والطعم والصــور(١٨) .

ويقول ياقوت الحموي في كتابه " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " (١٩) عن الحرفـــة وصاحبها " غير مرّ وحرفة محتقرة " . وبلغ أمر الاستهانة أن ترد بعض القضاة فـــي قبول شهادة معلم الصبية . وقد عزا آدم ميتز Adam Metz كثيرا مما لحـــق بهؤلاء المعلمين من ضروب الاستهزاء والسخرية إلى التأثر بالروايات اليونانية الهزلية وكان المعلم فيها من الشخصيات المضحكة (٢٠) . وحتى لا يلحق بالأدباء ما لحـــق بمعلمي الصبية انصرفوا عن الكتابة للأطفال .

و... ... ... أن الكتابة الأدبية للأطفال لم تكن حتى وقت قريـــب ... ... بين الأدباء ، بل كان يظن أنها تنزل من قدر الأديب الفنــان ... أن ... على أفكار الناس أن الذين يكتبون أدبا للصغار هم من لا ترتفع بهـــم ... ... إلى الكتابة للكبار ، ومن ثم خاف الأدباء على مجدهم الأدبي (٢١) ... وا أدب الأطفال ، وأعرضوا عنه ، ونأوا بمواهبهم عن الإبداع فيه . وذلـــك ما دعا الشاعر الفرنسي الكبير عضو الأكاديمية الفرنسية شارلز بيرو Charles Perrault حين كتب أول مجموعة في العصور الحديثة من قصص الأطفال خاصة للأطفال عام ١٦٩٧ بعنوان " حكايات أمي الأوزة : Tales of My Mather Goos " أن يضع عليها اسم ابنه الصغير " بيرو دار مانكور " (٢٢) . والأديب الكبير على الرغم من شاعريته ... وسمعته الأدبية المعروفة في عصره خاف على مجده الأدبي ، فلم ينســـب مجموعة قصص الأطفال لنفسه ، لكن الإقبال الكبير على " حكايات أمي الأوزة " مـــن القراء صغارا وكبارا ، وشهرتها التي طبقت الآفاق في فرنسا وأوروبا بعد أن ترجمت إلى لغاتها ، جعلت شارلز بيرو يراجع نفسه ، ويخرج للأطفال مجموعة أخرى بعنوان " أقاصيص وحكايات من الزمان الماضي " ويضع اسمه عليها هذه المرة . وبذلـــك بدأ عهد جديد في أوربا لم تعد فيه الكتابة للأطفال حطة في شأن الأدبـــاء ، ولا يخشون منها على مجدهم الأدبي ، بل أصبحت عملا أدبيا يفخر به الكاتب إذا كان العمل الأدبي ممتازا يقبل عليه جمهوره من الأطفال .

والمهتمون بأدب الأطفال إذا تتبعوه في مسيرته التاريخية ، ورصدوا ـ من الـ... العالمي ـ ظواهر وحركة تطوره يجدون ثلاثة منعطفات تاريخية رئيسـية أثرت تأثيرا كبيرا في توجيه هذه المسيرة ، ولعبت دورا فاعلا في حركة تطوره ، ... بحلته وابتداعه كيانا أدبيا مستقلا وامتدادا إلى ذيوعه وانتشاره وازدهاره ، ... انتقاله إلى الآفاق التي وصل إليها في عالمنا المعاصر .

وأول هذه المنعطفات ، حين آذنت شمس القرن السابع عشر بالمغيب، وكتب الشاعر الفرنسي الكبير شارلز بيرو عام ١٦٩٧ للأطفال خاصة أول مجموعة قصصية بعنوان " حكايات أمي الأوزة " ، ومن حكاياتها: الجنية،وسندريلا ، والجمال النائم ، وذو اللحية الزرقاء ، والقط في الحذاء الطويل . وبهذه المجموعة بدأ ميلاد جديد لأدب الأطفال ، فالأقبال المنقطع النظير على قراءتها زاد من مجد كاتبها ، وأعلت من مكانته الأدبية شهرتها التي تجاوزت فرنسا إلى أوروبا ، وفكت الحظر الوهمي المضروب على الكتابة للأطفال من الأدباء ، وطمأنتهم على سمعتهم الأدبية إذا ابتدعوا أدبا للصغار ، وبعثت فيهم نشاطا عجيبا فانطلقوا يبحثون وينقبون في الآداب الشعبية الأوروبية يستلهمونها ؛ أو يعيدون صياغتها ويضفون عليها طابعهم الفني ، ويبسطون أسلوبها ومعانيها لتناسب الصغار [٢٣] ، يقرأونها أو تحكى لهم فتبعث فيهم روح المرح والمتعة ، وتخلب لبهم بألوان الخيالات المبهرة وتفتنهم بأحداثها الآسرة وأشخاصها الذين يشدون إليهم قلوب الصغار فيحلقون وراءهم في عوالم جديدة يعرضون لهم فيها الحق في جماله ، والعدل في بهائه ، والصدق في روائه خلال ثوب من التصور والخيال . وأخذوا يبدعون أدبا جديدا للصغار ، يصلون مضمونه الشعبي بالتجربة الواقعية ، ليسعد الأطفال بفكرته الأنسانية وقالبه الجميل وعباراته الرشيقة وومضات المرح التي تنتشر فيه ويشبع عواطفهم بصوره ، ويوقظ عقولهم بخياله ، ويضئ قلوبهم بومضات الخير والحق فيه ، ويعمق مداركهم عن طريق التسلية والترويح والمتعة .

من هنا يمكن القول بأن مجموعة " حكايات أمي الأوزة " ـ وقد أثارت في فرنسا والبلاد الأوروبية الأخرى ، وخاصة ألمانيا وانجلترا ، حركة جادة في أدب الأطفال سدت بنتاجها فراغا كبيرا عانى منه الصغار زمنا طويلا ـ تعتبر أول مراحل التكوين الحقيقي لأدب الأطفال ، فقد أخذ يستقل عن أدب الكبار ، ويخرج من وصايته ، وينفصل تدريجيا عن أحضان الآداب الشعبية للكبار . لكن أدباء هذه الحركة كانوا ينظرون إلى الأطفال من منظور عام وكلي ، يضعونهم جميعا في نطاق موحد دون اهتمام بالطفولة كمرحلة مستقلة بذاتها، ومهمة في ذاتها، ومؤثرة بقوة في مراحل الحياة التالية لها ، ودون اعتبار للفروق الفردية أو فروق السن الزمني والإدراكي ، أو الفروق بين الطفولة نفسها ، وكان ذلك مناخ العصر وتفكيره عن الأطفال،وقد سادت فيه التربية التقليدية التي تقوم على علم النفس القديم ذي النزعة العقلية الإرادية ، فأحلت الموعظة اهتمامها التي تسير حياة البشر ، وأهملت أثر البيئة المحيطة بالطفل ، وتسيء بنفسيته قبل أن تعنى بالتربية [٢٤]

والمنعطف الثاني بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن أدب الأطفال في أوربا وأمريكا قد أخذ ينطلق في مسارة الصحيح ليدخل مرحلة الازدهار في الشكل والمضمون ، واندفع في مسيرته بقوة لا تتوقف ، بل زادت ثراء مع الأيام . وقد ساعد هذا الازدهار عدة عوامل منها :

١ - تأصيل علم نفس الطفل في أوائل القرن العشرين ، بعد أن عكف علماؤه على دراسة الطفل دراسة منهجية منظمة ، وبذلك انفتح الطريق للمعرفة الصحيحة بالطفل ونفسه ، وتكوّن شيئا فشيئا "علم نفس الطفل" القائم على الملاحظة والتجربة ، والذي اكتشف مرحلة الطفولة كمرحلة مستقلة، لها ميولها واهتماماتها وحاجاتها المادية والعاطفية ، ولها نوازعها ودوافعها المستقلة عن الكبار استقلالا تاما . وأصبح من مسلمات هذا العلم الجديد أن نفسية الطفل تختلف عن نفسية الراشد اختلافا كليا سواء في الدرجة أو المستوى أو الطبيعة ، وبذلك تغيرت النظرة إلى الطفل ، ولم يعد ينظر إليه كراشد مصغر ، بل كائنا مستقلا لنفسيته قواعدها وقوانينها الخاصة بها . ووجدت التربية في علم نفس الطفل منهلا ثراً ومصدرا غنيا تبني عليه مبادئها وأسسها الحديثة . وأصبح المنزع النفسي الجديد في التربية والذي يمثل حجر الأساس فيه المربون بستالوتزي (١٧٤٦ - ١٨٢٧) ، وفروبل (١٧٨٢ - ١٨٥٢) ، وهربارت (١٧٧٦ - ١٨٤١) القاعدة المتينة للمذهب التربوي الحديث، فوجه عنايته إلى تكوين الطفل تكوينا متكاملا متسقا بحيث لا تزيد معارفه وعلمه فقط ، بل يزداد معهما نضجه ونموه وتفتحه ، ويصبح أقدر على التفكير والتحليل . كذلك قدم علم نفس الطفل خدمات جلى للتربية حين درس تأثيرات مرحلة الطفولة الحاسمة في المراحل المتعاقبة بعدها ، وفي بناء الانسان وتكوينه ، وحين اكتشف مراحل الطفولة المختلفة وما تتميز به كل مرحلة من اهتمامات وميول وحاجات نفسية وعاطفية . وبذلك وضع الأسس السليمة لتربية ملائمة للنمو النفسي للطفل متركزة حول اهتماماته وميوله وقابليته وطباعه ومقومات الشخصية عنده في كل مرحلة ، ومتجهة نحو تفجير هذا الاهتمام في نفس الطفل وجعله المدخل الأساس لتعليمه وتكوينه .

وبفضل بحوث علماء النفس وجهود علماء التربية أصبحت الطفولة تعد مرحلة وجود مهمة في ذاتها ولذاتها ، والفهم العميق لهذا الادراك الجديد للطفولة بني داخل الأدباء الذين يكتبون للأطفال لونا من المعرفة الواعية بنوع الأدب الذي يقدم للصغار ، فوضعوا نصب أعينهم

حين يكتبون اهتمامات كل مرحلة وميولها وعاداتها العاطفية ودوافعها الخاصة بها ورصيدها اللغوى ، ومقدرتها الادراكية في فهم المعانى ، فكتبوا لها الأدب الذى يناسبها .

٢ - رغبة الكبار من الذين خلفتهم الحرب العالمية الأولى - بعد أن أتت على الأخضر واليابس ، وحصدت الملايين من الشباب - فى أن يبدأ العالم من جديد . والبداية الجديدة رصيدها الأطفال ، فاتجه الكتاب والفنانون اليهم بحماس شديد ، يقدمون لهم فيها أحسن للعالم الذى لم يحافظ الكبار على السلام فيه ، وليؤكدوا لهذه القلوب الغضة الرقيقة التى أزعجها الخوف والفزع من الدمار الذى حاق بهم - أن الحياة مستمرة وسيعيشونها الى أبعد أعماقها ، وعلى أيديهم تتجدد الحضارات ، وأدب الأطفال خير وسيلة تصل بها هذه الرسالة الى قلوب الصغار . ودارت المطابع بألوان شتى منه تغذى الجوانب الروحية والانسانية والوطنية ، تبث فيهم الإيمان بالله والوطن والإنسان ، وتعيد للأطفال ما فقدوه من الأمن والأمان .

٣ - تكوين المجالس والجمعيات والهيئات التى ترعى مصالح الأطفال ، واتجه بعضها إلى رعاية الجانب الثقافى والترفيهى فكان لها صلاحيات الرقابة ونقد كل مايتصل بالأطفال من مطبوعات[٢٦] ، وإعداد تقارير بصلاحيتها أو عدم صلاحيتها لهم والتزكية بالنشر أو التوصية بحجبها عنهم ، فاذا ماخالف الناشر التوصية بادرت تنشرت وجهة نظرها مع عرض للكتاب ونقد له . ومن هنا كانت هذه الجمعيات كالمصفاة تمنع الكثير من المطبوعات التى تضر بالأطفال ، أو كالنذير تشير إلى الخطر الكامن للأطفال فى الكلمة المنشورة .

٤ - وساعد على الازدهار كذلك ظهور دور النشر المتخصصة فى طبع ونشر كتب الأطفال ، واكتشاف التكنيك الحديث فى صناعة الكتب ، وتقدم الطباعة والتصوير ، وانتشار المكتبات العامة ومكتبات المدارس ، وإقامة نواد للأطفال بمكتباتها وأنشطتها المختلفة .

هذه العوامل وغيرها أعطت أدب الأطفال دفعات قوية من التطور جعلت الأطفال يعيشون العصر الذهبى لأدبهم مستقلا عن أدب الكبار الذى أخذ بمعانى الكآبة واليأس والتشاؤم حتى فى عصر السلام ، لما يراود الكبار من شك فى حياة أفضل لهذا العالم ، ولما يدركون من أنهم يعيشون مهددين دائما بالدمار .

والمنعطف الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان اهتمام العالم المتقدم قد بلغ أشده برفع مستوى التعليم الألزامي وجعله مرحلة توجه فيها العناية الى نمو الطفل في جميع النواحي العقلية والبدنية والعاطفية والنفسية والاجتماعية ، ومن ثم زادت الرغبة في الارتفاع بمستوى مدرسي المدارس الأولية ، وأصبح ينظر الى عمل مدرسيها نفس النظرة التي ينظر بها لعمل مدرسي المدارس الثانوية مما أدى ببعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية إلى إنشاء معاهد تعد الفريقين من المعلمين إعدادا متساويا ، فبعد أن أنقرضت مدارس النورمال Normal Schools فيها حوالي منتصف القرن الحالي حلت محلها كليات المعلمين Teachers Colleges ثم كثر عدد المعاهد التي تعد المعلمين من كليات للفنون الحرة Colleges of Liberal Arts تدرس فيها البيداجوجيا ، وأقسام التربية بالجامعات Education Departments ، ومدارس للتربية بالجامعات Schools of Education (٢٧) ، وفي هذه المعاهد دخل أدب الأطفال برامج الدراسة لإعداد المعلم ، وسلك طريقه ليصبح مادة علميه من المقررات الدراسية في الجامعات وكليات المعلمين (٢٨) ، وحينئذ تولاه العلماء ودرسه المتخصصون دراسة علمية تحدد قواعده ، وترسم مناهجه ، وتبين أجناسه الأدبيه ومقاييسها النقديـة ، وتظهر مراحل تطوره ، وتوضح دوره الكبير في صنع الإنسان وبنائه (٢٩) . وبذلك كله أصبح أدب الأطفال فرعا جديدا لتيار الأدب العام (٣٠) .

وإذا تتبعنا مسيرة أدب الأطفال في لغتنا العربية نجده ، في العصور القديمة ، ـ كسائر اللغات ـ يسير متعلقا بالتراث القصصي في المجتمع العربي ، يسير في ركابه ، ويعيش عالة عليه ويتخذ مصادره من قصص الكبار . غير أن الجانب الرسمي من المجتمع لم يلق بالا إلى هذا اللون من الفن القصصي ، ولم يقدره الرواة والمدونون قدره ، ولم يلتفت الأدباء إلى تلبية حاجة الأطفال إلى أدب خاص بهم فينشئون لهم ما يناسبهم من فن طفولي ، ومن أجل ذلك ظلت قصص الأطفال المستمدة والمبسطة من قصص الكبار تتناقلها شفاه الجدات والأمهات والجواري والمربيات ، وتستوعبها ذاكرة الزمان تراثا شعبيا . والذين دونوا تراثنا الأدبي في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي وجهوا كل جهودهم إلى أدب الكبار ، ولم يسترع انتباههم من أدب الأطفال إلا ما كان متصلا بأدب الكبار ، أو تلك الأغنيات التي كان الكبار يرقّصون بها الصغار ، وأغنيات الترقيص هذه إنما ـ كما سبق أن اشرنا الى ذلك ـ لا تدخل في أدب الأطفال ، وذلك لأن معانيها ـ وهي فوق مستوى الصغار ـ تصنفها في أدب الكبار ، فهي أغان عن الطفل وليست أغاني للطفل يمكن أن يغنيها بنفسه فيسعد بنغمتها ومعانيها معا .

وفى عهود الجهل والاستبداد والاضمحلال التى مرت ببلادنا العربية ، شبت أجيال من الأطفال العرب يعانون من فقر التجربة وجدب العاطفة وتشويه الخيال، وقد كانت قصصهم التى تسربت إليهم من قصص الكبار تصور مايقاسيه المجتمع من الخوف والتعذيب والأرهاب والضنك والمسغبة، واستمع الأطفال منها إلى حكايات " أبونا الغول " مع ست الحسن والجمال وقد خطفها إلى قمة الجبل وأسكنها فى كهف مظلم تقوم على خدمته وتأكل من حشا شر الأرض ، و" أمنا الغولة " التى تخطف الأطفال وتسجنهم فى السراديب الكئيبة ، وقصص " جنيات البحر " التى تخطف الصيادين ، و " حصان خوى خضير " الجنى المسحور فى شكل حصان يطارد أخت خضير الجميلة ، و " الشاة المسحورة " التى أكلت رب الأسرة ، و " سرور " الطفل الذى قذفت به زوجة أبيه فى التنور وطبخته طعاما للضيفان[٣١] . . . وغير ذلك كثير من القصص الشعبية التى كانت تطارد هم أشباحها فى الصحو والمنام ، ولم يكن لدى الكبار غيرها يشبعون بها خيال الأطفال المنهوم وعواطفهم المجدبة وتجاربهم الفقيرة .

ولغتنا العربية ظلت إلى عهد قريب لغة المثقفين من أبنائها ولم تكن لغة المبتدئين فى التعليم ، فكان من العسير على الطفل أن يقرأ للمتعة أو الاستفادة دون مساعدة الكبار ، وعدم الاهتمام بأدب الأطفال فى بلادنا العربية نتيجة طبيعية لعدم اهتمام لغتنا العربية فى تاريخها الطويل بهذا النوع من الأدب ، وطفلنا العربى ظل محروما من الأدب الرفيع المؤلف له خاصة قرونا طويلة . والمهتمون بالدراسات الأدبية يدركون أنه لم يلتفت أحد إلى أدب الأطفال لا تأليفا ولا تدوينا .

ومع نهاية القرن التاسع عشر اجتاز أدب الأطفال فى لغتنا العربية المنعطف الأول الذى استقل به عن أدب الكبار وخرج من وصايته ، وأخذ ينفصل به تدريجيا عن أحضان الآداب الشعبية للكبار ، ويبدأ يدخل مرحلة التأليف والأبداع، وذلك على يد الشاعر أحمد شوقى ، فقد ألف عام ١٨٩٨ أغنيات وقصصا منظومة على ألسنة الطير والحيوان، وكتبها خاصة للأطفال ، فكان أول من أبدع فى اللغة العربية أدبا للصغار العرب مستهدفا تسليتهم وإمتاعهم والترويح عنهم وإدخال السرور على قلوبهم . وهو بذلك يعد الرائد لأدب الأطفال فى لغتنا العربية وأول من استحدث للصغار العرب أدبا يتذوقونه ويسعدون بسماعه أو قراءته .

ويسجل شوقى تجربته فى الكتابة للأطفال فيقول : " وجربت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب " لافونتين " الشهيرة ، وفى هذه المجموعة شئ من ذلك ، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ

عليهم شيئا منها ، فيفهمون لأول وهلة ، ويأنسون إليه ، ويضحكون من أكثره ، وأنا أستبشر لذلك ، وأتمنى لو وفقنى الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المستحدثه ، منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم ، والخلاصة أنى كنت ولا أزال ألوى فى الشعر على كل مطلب ، وأذهب فى فضائه الواسع فى كل مذهب ، وهنا لا يسعنى إلا الثناء على صديقى " خليل مطران " صاحب المنن على الأدب ، والمؤلف بين أسلوب الأفرنج فى نظم الشعر وبين نهج العرب ، والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء ، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية (٣٢)»

أدرك شوقى ببصيرته النافذة وإحساس الشاعر وذوق المجدد ، بعد أن اطلع على الآداب الفرنسية ورأى فنونها الجديدة ، وبعد أن اختلف إلى المسارح الغنائية والتمثيلية فى باريس ولندن ، وتردد على " مقهى داركور " مقر ندوة الشاعر الرمزى " فرلين " (٣٣) ، أن فى الثقافة الغربية جديدا ينبغى أن يجرى فى أثره أدباء العربية ، وأن فى الآداب العالمية فنونا مستحدثه يجب أن تجد لها مكانا فى الأدب العربى ، واقتنع بأنه لابد وأن يجرب موهبته الشعرية فى هذه الفنون ليطعم بها الأدب العربى ، ويضيف إليه مانقص منه ، ويستحدث فيه مايواثم ذوقه وميوله ، ومن ثم راد طرقا جديدة فى الشعر العربى ومنها قصص الأطفال وأغانيهم ، بل أصبح من أمانى شوقى وآماله أن يكون للأطفال المصريين العرب أدب مكتوب باللغة العربية فى متناول عقولهم يستمتعون به على غرار أدب الأطفال الأوربيين الذى اطلع عليه فى فرنسا .

استعان شوقى على تحقيق أمنيته هذه بنداءين : وجه أحدهما إلى صديقه الشاعر خليل مطران ليتعاونا فى خلق هذا اللون من الأدب للأطفال ، ويلمح قارئ الدعوة التى وجهت إلى خليل مطران إحساس شوقى بمقدرة مطران المتفوقة على خلق هذا اللون الأدبى ، لأنه أصيل فى التجديد ، وأكمل فى التأليف بين أسلوب الفرنج فى نظم الشعر وبين نهج العرب . وطبيعى ، وشوقى شاعر ، أن يكون مايؤلفه من أدب للأطفال شعرا ، لكنه كان يود أن يكون للأطفال العرب أدب فى صورته الكاملة من شعر ونثر ومن ثم وجه نداءه الثانى إلى سائر الأدباء والشعراء ليساعدوا فى خلق أجناسه المنوعه ، وبذلك تتحقق أمنية شوقى كاملة .

لم تلق دعوة شوقى إلى خلق أدب للأطفال الاستجابة المرجوة من خليل مطران ، كذلك لم تجد صدى قويا عند الشعراء والأدباء المعاصرين لشوقى ، فقد شغلتهم الكتابة والنظم للكبار عن عالم الصغار ، وشغلهم الخوف على مجدهم الأدبى فى مجتمع ينظر إلى أدب الأطفال آنذاك نظرة أقل ماتوصف به أنها

[illegible]

[illegible] يرى بهم [illegible]

[illegible] ، لم يحضر واحد من الشعراء أو الأدباء فيشغل نفسه بأمر [illegible] أو ينسج [illegible] في تحقيق أمنيته ، ولعل رجع الصدى إلى شوقي قد أثر في نفسه كذلك [illegible] ، وأصيب بالإحباط ، فلم يعاود الكرة إلى دعوة الشعراء أو الأدباء [illegible] من تلك الحكايات للأطفال ، وكأن شحنة الحماس التي [illegible] بها [illegible] [illegible] الذي كان أول من بدأه في أدبنا العربي (٣٦) [illegible] .

[illegible] في [illegible] [illegible] الأطفال في [illegible] [illegible] شاعر كبير [illegible] مجموعة [illegible] للأطفال عام ١٦٩٧ [illegible] ، ورائد أدب الأطفال في [illegible] العربي " أحمد شوقي " شاعر كبير كذلك ، بل أمير الشعراء العربية في العصر الحديث ، وكتب أول مجموعة قصصية للأطفال باللغة العربية تربو على ثلاثين قصة على ألسنة الحيوان والطير نظما وقد يشير ذلك إلى أن الشعراء وهم أكثر الناس شفافية في الرؤى ، وأشدهم حساسية بمن حولهم قادرون على تحسس حاجات الطفل وفهمها ، لأن العلاقة قوية بينهما ، فالشاعر الانسان يكمن في أعماقه طفل صغير ، والشاعر والطفل يسرحهما الخيال أكثر مما يشدهما الواقع ، وكلاهما يسعى إلى تغيير الواقع إلى ما يريد ، وكل منهما يجمع في أعطافه قدرا كبيرا من الخيال الجامح ، والحب الدافق ، والعاطفة الغامرة ونقاء السريرة وبراءتها ، ومن ثم نجد الشاعر أقرب الناس شبها بالأطفال ، ومن أقدرهم على دخول عالم الطفولة الساحر ، ذلك الذي لا يعتمد الداخلون إليه على العقل وحده ، بل [illegible] فيه الخيال والحب والعاطفة ، وقدر كبير من التمييز الوجداني ؛ ونصيب وافر من ذكريات الطفولة ومرحها البرئ ، وولع بقيم الحق والخير والجمال . والشعراء بهذا كله حين تسمح بهم أخيلتهم وتقودهم إلى العالم الأسطوري المسحور والمحفور في عقلهم الباطن منذ الطفولة ، يدركون ما يشد عواطف الأطفال ويثير خيالاتهم فيصوغونه - إن أرادوا وتهيأت لهم الظروف - أدبا يمتع الأطفال ويؤنسهم ويدخل السرور على قلوبهم .

أما تأخر ظهور أدب الأطفال مائتي عام ١٦٩٧ - ١٨٩٨ ، في لغتنا العربية على الرغم من أصالتها وعمقها التاريخي البعيد ، وحظ أهلها الموفور من الخيال وموهبتهم المبدعة والقادرة على صياغة القصص الجميل ، فذلك لأن طفلنا العربي بعامة ، في مسيرته مع التاريخ ، قد أصابت علاقته بالفن الأدبي سوء

(٢) صعوبة استخدام التعريف الديناميكي (الايكولوجي) لتعريف مراكز العمران المدنية في المملكة ، لعدم توافر خرائط لكل مراكز العمران في المملكة وصعوبة بل استحالة زيارة كل مراكز العمران في المملكة لاستكشاف البروفيل الحضاري لهذه المراكز العمرانية .

(٣) لم يتبق لنا سوى التعريف الاداري أو الحجمي التي يمكن الاعتماد عليه في تعريف المدن السعودية ، وبالرغم من ذلك فان تطبيق ذلك لا يخلو من عدة عقبات :-

أ — لم تحدد الدولة أي أساس حجمي تبتدئ منه المدينة وما عدا ذلك يكون مراكز قروية ، كذلك لا توجد دراسات سابقة للمدن في مناطق صحراوية مماثلة بحيث يمكن أن يحتذى حذو هذه البحوث ، وبالتالي أن تحديد أساس حجمي ستكون مجازفة من قبل الباحث .

ب — عدم وضوح التعريف الاداري للتقسيمات الادارية في المملكة . ومن المفيد أن نلقي الضوء على التقسيمات الادارية للمملكة ومقابلتها بمثيلاتها في دول أخرى . نتقف المنطقة على أكبر التقسيمات الادارية في المملكة وهي تقابل المحافظة (المديرية) ثم تأتي الامارة لتقابل مركز ، أما الامارة التابعة تقابل الناحية ، لذلك فانه يمكن أن نعرف المدن من الناحية الادارية هي عواصم المحافظات (الامارات) ومركز الامارة (عاصمة الامارة الرئيسية — المركز) هي المدن حسب التعريف الاداري فضلا عن المراكز العمرانية التي تسمى بمدينة .

جـ — مما يصعب الوصول الى تعريف واضح للمدن السعودية ، أن المدن الرئيسية التي عرفها التعداد لا تخلو من سكان رحل وهذا يتنافى مع مفهوم المدينة . فمثلا تبلغ نسبة السكان الرحل في الرياض العاصمة (٢٣ر ٪) وتبلغ نسبة السكان الرحل في مدينة بيشة أكثر من ربع السكان (٢٩ر٥٤ ٪) ، وتبلغ نسبة السكان الرحل في عرعر عاصمة منطقة الحدود الشمالية ٢٤ر٢٪ من جملة السكان . وهذه أمثلة صارخة تتعارض مع مفهوم المدينة (الاستقرار المستمر) .

توزيع سكان المملكة
الخليج
خليج عمان
حضر
غير حضر